الكاتب: **أ. علاحمو مصطفى**
كلية الآداب والعلوم الإنسانية-
جامعة إبن زهر- أكادير- المغرب
البريد الالكتروني: mustaphaallahammou@gmail.com

عنوان المقال: **التحولات الاجتماعية والاقتصادية لفئة المرابطين و انعكاساتها على مجتمع الواحة: تودغى أنموذجا**

تاريخ الإرسال: 2019/09/10 **تاريخ القبول**: 2019/12/30 **تاريخ النشر**: 2020/03/31

التحولات الاجتماعية والاقتصادية لفئة المرابطين و انعكاساتها على مجتمع الواحة: تودغى أنموذجا

Social and economic transformations of the Almoravids group and its implications for the Oasis community: Todgha Amodel

الملخص باللغة العربية:

أدت التحولات التي فرضها تغير أساليب تنظيم وتدبير الملكية الخاصة بتودغى إلى إعادة هيكلة القاعدة الاجتماعية والاقتصادية القديمة بها، حيث بموجبها انتقل المْرابطين(ملاك أرض) الذين كانوا يصنفون من قبل ضمن الفئات المؤثرة في التركيبة البشرية للمنطقة إلى الانخراط في الحياة العامة، والتوجه لممارسة أنشطة مخالفة لما عرفوا بمزاولته في الماضي من أدوار، المتمثلة أساسا في رعاية الزوايا وخدمتها، والتحكيم والمصالحة بين القبائل المتنازعة المجاورة أو حتى البعيدة من زواياهم، وهذا العامل كان له أثر سلبي بليغ، يتجلى بداية في تأزيم وضعيات العناصر الاجتماعية الأخرى، ومنها الحراطين والرحل، مثلما زاد ذلك في الضغط عن الموارد الطبيعية بالمجال المذكور، كما أهملت بفعل ذلك النظم التقليدية التي كانت قد ضمنت الاستقرار والاستمرار للعنصر البشري بالواحة لعهود، والنتيجة اختلال المنظومة البيئية وبداية نهاية الأنماط العتيقة التي تميزت بها المنطقة منذ عقود من الزمن.

كلمات مفتاحية: تحولات- المْرابطين-واحة- تودغى - إجتماعية- إقتصادية- نظام- أعراف

Abstract:

The transformations imposed by the change in todgha's ownership management methods led to the restructuring of its old social and economic base, whereby the Almoravids, who were previously classified as influential in the human composition of the region, moved to engage in Public life, and the orientation to engage in activities contrary to what have been known as the roles of the past, consisting mainly of the care and service of the corners, arbitration and reconciliation between the neighbouring tribes or even distant from their corners, this factor has had a profound negative impact, manifested in the beginning of the aggravation of situations Other social elements, including the Haratin and the Nomads, have increased the pressure on natural resources in the said area, as have been neglected by the traditional regimes that had ensured the stability and continuity of the human element in the oasis for centuries, and the result of the disruption of the ecosystem and the beginning of the end of The ancient patterns that characterized the region for decades.

Key words: Transformations - Almoravids - Oasis - Todgi - Social - Economic - System - Customs.

مقدمة:

يتشكل الجنوب الشرقي المغربي من مجموعة من الواحات، صنفت كهوامش شبه صحراوية، متميزة من حيث تفاصيلها البيئية والبشرية، وحتى التنظيمية، إنها في الحقيقة تعتبر أنموذجا مستقلا ومتكاملا لدراسة القضايا المتعلقة بالإنسان وعلاقته بالمجال. وعلى هذا النحو، يحق القول-وبهذا التعبير- أن الواحة بطابعها منفردة بغناها التاريخي والحضاري، وبتنوع مورفولوجيتها الإجتماعية، والمعطى الأخير عامل مشترك بين هذه المجالات على حد السواء، مما يجعلها على الدوام مستهدفة بدراسات وأبحاث متنوعة من اختصاصات علمية مختلفة؛ هدفها إماطة اللثام عنها، وسبر أغوارها لتكوين صورة أكثر وضوح عنها في شتى الجوانب، ومنها بطبيعة الحال الجانب الاجتماعي الذي يبقى من الحقول الخصبة بالنسبة للباحثين في التاريخ بعصوره وحقبه المتنوعة.

أولا- لمحة عن مجتمع الواحة

تعد الواحة "نموذجا يفسر تاريخ المجتمعات القديمة ونمط حياتها، ويساهم في إدراك التقنيات والطرق والمبادئ التي تؤسس لعلاقات متوازنة بين الحضور البشري وتنظيم المجال، فهي تشكل تراثا معرفيا له قدرة متميزة على الإنتشار وزرع روح التعاون"[1]. واعتبارا لمقام الإنسان في تسيير محيطه وتوجيه خيراته المحدودة، فقد أثارت البنية البشرية لهذه النطاقات بالجنوب الشرقي المغربي كثيرا من الاهتمام والفضول لدى الباحثين من مختلف المشارب العلمية، وهذا راجع لشوق معرفي والتفات علمي قل نظيره، غايته كشف خباياها ورصد خصوصياتها، التي لا يمكن بالمطلق الحكم عليها بناء على تقولات مسبقة ومسلمات وإسقاطات فوقية، وإذا لمحنا لهذه النقطة فغايتنا منها ها هنا هو فقط إبراز مدى عسر الغوص في مثل هذه القضايا اتكالا على أفكار متواترة، بعيدا عن الميدان الذي قد يفوح ويفيض بمعطيات مغايرة قد تسقط الباحث فقط في مطب التكهنات والترهلات لا غير.

وبناء عليه، جرت العادة في العديد من الدراسات، لاسيما المخصصة منها للتاريخ الاجتماعي للواحات المغربية بوجه عام، تناول المكونات البشرية لهذه المناطق وفق منظور كلاسيكي مألوف، حيث اختزلتها في"أربع فئات رئيسية تطبعها التراتبية والهرمية، وهي فئة الشرفاء والمرابطين ثم فئة العوام(التي تتكون من الأمازيغ والعرب)، ثم فئة اليهود وأخيرا فئة الحراطين"[2]، لكن ما يميز هذه العناصر في واحة تودغى عن غيرها بغض النظر عن تنوعها، هو أنها استطاعت تشكيل قبائل منعزلة خاصة بها، بالرغم من أن قصور بعضها كانت تضم- رغم النزعة الذاتية- عناصر بشرية مختلفة خاضعة للنظم والقوانين السائدة فيها، وهذا مؤشر "يذوب العلاقة العرقية، لتحل محلها علاقة التساكن التي يمليها العمران. مما يجعلها تنتج عادات وتقاليد تسهم في استمرارية الحياة به، والتعايش بين سكانه"[3]، ولعل ما سهل هذا التقارب والتلاحم بين تلك المكونات هو اشتراكها وتوحدها في عدة أصعدة، فدون اليهود(ملاك أرض وصناع وتجار[4]) الذين شكل المعتقد لوحده استثناء مع غيرهم، نجد الفئات الأخرى يحملون نفس الدين والثقافة(رغم بعض الاختلافات)، ويتحدثون نفس اللغة(الأمازيغية)[5]، مثلما كانوا يتقاسمون ملكية الأرض والماء.

صحيح أن "ملكية الماء بهذه الواحات لا تقل أهمية عن ملكية الأرض"[6]، لكن الحديث في مسألة حيازة هذه الثروة، التي لها دور كبير في تحديد مستوى الفرد والجماعة في سلم المنزلة الاجتماعية، خاصة في مجال اتسم تاريخه السياسي والديني بسيادة سلطة الزوايا،

يوجهنا مباشرة للحديث عن فئة كانت "تتميز بنمطها المعيشي والثقافي العالي"[7]، ونقصد هنا تحديدا العنصر المُرابطِي؛ الذي استسلم لتحولات عميقة سنها عليه إلزاما تراجع المؤسسات الدينية وفقدانها لدعائمها المادية، وكذا تلاشي دورها التأطيري والسياسي لصالح السلطة، بعدما أن احتمى واستظل واغتنى بأعطيات وهدايا الزاوية التي كانت قد شكلت في السابق "مؤسسة اجتماعية اقتصادية، ذات أساس ديني"[8].

ثانيا- المرابط: الأصل والتسمية

وردت في القرآن الكريم بعض الإشارات لكلمة الرباط والمرابطة، منها قوله تعالى:(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونْ)[9]، وقوله جل جلاله:(وَأَعِدُّا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمِ)[10]. والرباط هنا جمعه رباطات؛ التي نجد من أبرزها تلك التي أنشأها عبد الله بن ياسين لأتباعه قرب نهر السنغال لنشر الإسلام، لتطلق بعد ذلك كلمة المرابطين على أتباعه، و"لم يكن هذا الشيخ أول من أسس الرُبط؛ إذ أن الرُبُط كانت معروفة في الدولة الإسلامية وتقام في الثغور المحاذية للأعداء، يسكنها العلماء والدعاة والمجاهدون، ويأوي إليها الزهاد والصالحون، واسم المرابطون عند الفرنجة (Al-moravades) مشتقا من الرباط الذي انطلقوا منه"[11]. وهذا يعني أن أصل كلمة المُرابطين من الرباط الذي رابط فيه الناس سواء من أجل الجهاد أو لنشر تعاليم الدين الإسلامي.

قدمت للمُرابط مجموعة من التعريفات التي تفسر في مجملها مكانته في الهرم الإجتماعي للواحات، تراوحت بين ما هو إجتماعي وديني. فالأنثربولوجي إدموند دوتي اعتبر المرابط أنه "نعث لا يمكن أن يكون إلا دينيا بحتا وبإمكاننا بدون شك تعداد الأمثلة. [ففي القرن السادس عشر أصبح المرابط] قد تحول من دور العسكري إلى دور المصلح والداعية وأصبحت مهمته سلمية شيئا فشيئا ووليا إلى درجة أن الناس لم يجدوا تسمية تعني الرجل الزاهد إلا هاته"[12]، وهذا المعطى يتقاطع مع حالة مرابطي تودغى الذين ينحدرون من مختلف الأعراق لتجمعهم المرابطة، وتوحدهم خدمة الدين والتدين، في المقابل أشار فرج نجم إلى المرابطين" أنهم تلك النخبة التي أفرزها العنصر المحلي الأصلي الأمازيغي لتلبية الحاجة الروحية، ولتأهيل كوادر ذي مؤهلات سياسية تقوم برعاية مصالحهم والدفاع عن القاسم المشترك وهو الإسلام"[13]، على اعتبار أنهم مخصصين "بأدوار دينية كرجال للزوايا، أو الانتساب لأولياء صالحين سواء من العرب أو الأمازيغ"[14]، ويتمتعون بنوع من الاحترام[15]،

وهذا يعنى أنهم فئة لها حرمة خاصة، وظيفتها التحكيم في النزاعات الاجتماعية الناجمة عن تردي الأحوال الاقتصادية وشظف العيش.

ثالثا- وضعية المرابطين في واحة تودغى

تحتل فئة المرابطين في مجتمع الواحة "مكانة خاصة، نظرا لأهمية دورها المجتمعي وخطورته، هذا الدور الذي أفرزه مجتمع مهدد باستمرار في موارده الاقتصادية والبشرية، نظرا لتواتر الكوارث الطبيعية، ومضطرب، نتج عن ذلك التحرك الدائم، والتدافع الحتمي في اتجاه المناطق التي تكون أكثر خصبا"[16]، وهذا العامل جعل منهم عنصر استثنائي لدى العامة، فقد كانوا"يتلقون الزكاة والأعشار من القبائل المجاورة للرباط الذي يسمح لهم باستقبال الفقراء والمعوزين وأبناء السبيل وتقديم الوجبات الغذائية لهم دون مقابل، وصار المرابط يشكل النموذج البشري الذي تجاوز بعمله وتصوفه ومساعدته للمعوزين مستوى الإنسان العادي[17]، لكونه علاوة على ذلك يشكل رمزا روحيا وزعيما دينيا، كونت له صورة خاصة في مخيال عموم الناس، ولو أن تلك الصفة التي يملكها تظل في متناول الجميع لأن ينالها، فقط بشرط الاهتمام بالممارسات الدينية والاضطلاع في العلوم الشرعية وادعاء تبعية ولي صالح.

رابعا- التحولات الاجتماعية والاقتصادية للمُرابطين بتودغى

لقد استغلت هذه الفئة سمعتها الدينية واستفادتها من الأدوار العلمية والتحكيمية الموروثة عن مؤسسة الزاوية في نيل رضا وعطف المجتمعات المحلية، إذ تحولوا من أدوارهم الدينية التي تكفلوا بها في البداية إلى ملاك وطبقة استثنائية في التراتبية الإجتماعية بعد ذلك، لها رأسمال مادي حتى في مناطق بعيدة عن مجال انتماءها، سواء عن طريق الشراء أو من خلال الهبات والتحبيس، ويفسر ذلك انتشار عدد من أسرهم التي حصلت قطع أرضية في كثير من المناطق السهلية منها والجبلية.

لا ضير أن انتقال المُرابطين على مستوى الأنماط الإقتصادية والإجتماعية من نظام الزاوية إلى نظام القبيلة، وخضوعهم للعرف بدل الشرع في معظم جوانب حياتهم، شكل نقطة تغير شبه شاملة في مختلف المناحي. فعلى المستوى الاقتصادي مثلا، أدى تأثر العلاقات التي كانت تربط المؤسسات المذكورة بالفئات الإجتماعية الأخرى(الأمازيغ والحراطين...)، المبنية في الأصل عن التبعية الروحية والزعامة الدينية بفعل وعيها وكذا سعيها إلى الأفضل لتحسين وضعيتها، إلى انهيار القاعدة المادية للزوايا المحلية، وذلك بعدما

أن كانت قبل ذلك قد اعتمدت بشكل كبير على عائدات ما يقدم لها من أعطيات، وما يقتطع لصالحها من أراضي زراعية وأصناف متنوعة من الأشجار.

وعليه، فالمْرابطين أذعنوا للطابع السائد لدى نظرائهم في القبائل المحيطة بهم، وأخضعوا حياتهم الاجتماعية لمجموعة من التطورات، مستفيدين في ذلك من التعايش والتعاون المرتكز على اندماج ثقافي واجتماعي هدفه الأسمى تقاسم الخبرات والتجارب لصون المصالح العامة وحفظها، وهذا في تقديرنا كان من العوامل التي أفرزت في النهاية مجتمعا واحيا تقليديا بنظم خاصة، آخذة بعين الاعتبار سمات البيئة المحلية(مجال ندرة وشح الموارد)، والأمر واضح من خلال إقبالهم على القيام بمجموعة من الأنشطة التي كانت من ذي قبل حكرا على الطبقات "الدونية". ومن الأعمال التي زاولها هؤلاء على نهج غيرهم نذكر:

- الزراعة: كانت تعتبر نشاطا يوميا محوريا وأساسيا، ساعد في اعتلائها هذه القمة تواجد وسيادة الأراضي الزراعية الخصبة الشاسعة التي امتلكها المرابطين(أتباع الزوايا ووارثيها)، نهيك عن استفادتهم من حصص المياه[18] التي تعد العنصر الرئيس في هذا الميدان، وتوفر هذان المقومان كان كافيا لإنعاش الممارسة الفلاحية لهم بالمنطقة، مما شجعهم في توسيع نطاق هذا النشاط لأن يشمل حتى المناطق البورية التي كانت تعتمد غلالها على التساقطات المطرية بشكل مباشر، دونما أن ننسى امتهناهم إلى جانب ذلك غرس الأشجار المثمرة من نخيل وزيتون وغيرها.

- البناء: يعتبر من أقدم الحرف التي عرفتها منطقة تودغى، بحيث يعد العمران في هذا الصدد أحد أهم العناصر المشكلة لهوية المجال، مثلما يعبر في ذات الآن عن الغنى الحضاري والتاريخي له. وارتباطا بموضوعنا، فقد أكدت جل الروايات الشفهية أن مرابطي الواحة إلى حدود منتصف القرن العشرين كانوا قد كونوا فرقا اقتصر دورها في تشييد المباني الطينية التقليدية[19]، وهناك من هذه الفرق من شاركت في بناء قصبة التهامي الكلاوي الكائنة بتنغير

- الحالية، مثلما يعود إليها الفضل في إعادة إعمار القصور المهدمة وبناء أخرى جديدة(قصر حارث الذي تنتمي له زاوية المرابطين[20] بسافلة الواحة).

- الحصاد (تشكّالت): كانت تعد من المهن الموسمية لدى المرابطين، وكانوا يمارسونها بشكل فردي أو جماعي عن طريق تكوين مجموعات خاصة معروفة، سواء في مجال الواحة أو خارجه، إذ نجدهم مشهورين بذلك في كثير من الجهات المغربية، في خنيفرة (أزغار)، أيت ملال وملوية وأزيلال؛ وأغلب من امتهن ذلك من كبار السن مازالوا يحتفظون بتراث مادي مكون من أدوات الاشتغال من مناجل، حاميات الأصابع(أنظر الصورة[21])...، وإرث شفوي ممثل في الأشعار، والمأثورات، والحكم. حتى أن من هؤلاء "الحصّادة" من بلغ موطنه ومعه من تلك المناطق بعض الأساليب والتجارب التي لم تكن مألوفة في المجال الفلاحي

لديهم(الزراعة وتربية المواشي)، نهيك عن العلاقات الاجتماعية(الزواج والمصاهرة) التي ساهمت هذه المهنة التي لا تعترف بالانتماء المجالي في إقامتها وترسيخها.

- الخِماسة: تسمى محاليا بـ"تَخْمَّاسْتْ"، لم تقتصر ممارستها على الفئات المعروفة بها كالحراطين، بل لجأ إليها كذلك المرابطين لكونهم مالكي الأرض والماء، وقد فرض عليهم تغير الأنماط الإقتصادية والإجتماعية اعتمادها لخلق التوازن في قصورهم، وتفسر هذه العملية في قيام مالك فدان من الفدادين بوضع إستغلالها تحت وصاية شخص آخر قد ينتمي لقبيلته أو لقبيلة مغايرة، يعتني بها ويهتم بزراعتها وجني منتوجاتها، حيث يتحصل من خلالها المستغل على خمس المحصول ويعيد ما تبقى منه لمالك الأرض، لكن هذه العملية لدى المرابطين شبه معدومة في المجالات العالية الخصوبة، لقربها لمساكنهم؛ إضافة لكون أغلبهم

فلاحين يسهرون بأنفسهم على زراعة أراضيهم وجني وحصاد محصولها، وتبقى مخصصة فقط للمناطق البورية البعيدة على قصورهم.

- تهيئة المجالات الزراعية: تم من خلالها إعداد الأراضي الزراعية التي تتواجد في الغالب في المناطق السهلية، مثلما تم في هذا الصدد حفر عدد من الخطارات التي مثلت أحد أهم موارد مياه الري بسافلة الواحة، دون أن ننسى علاوة على ذلك، إعداد نفر من السواقي واعتمادها في توزيع الحصص المائية على المناطق الفلاحية.
-

فلاح مرابطي بمنطقة البور

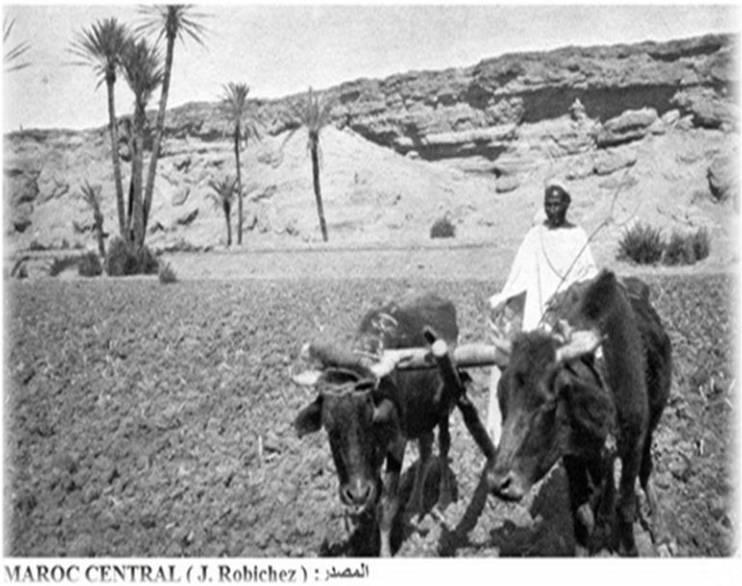

المصدر : (J. Robichez) MAROC CENTRAL

إن الخلل الذي أصاب المنظومة الاجتماعية والاقتصادية للواحة[22](تغير وضعية المرابط جزء منه) كانت له انعكاسات ملموسة ومؤثرة إن لم نقول خطيرة في نفس الوقت على الحياة العامة للمكونات البشرية المشكلة لهرمها الاجتماعي. فالمرابط الذي كانت وظائفه من ذي قبل منحصرة في الحرص على تدبير شؤون الزاوية، وتتبع مريديها والاهتمام بمأكلهم ومشربهم، وكذا العناية بزوارها وجمع أعطياتهم(إنعاش الشق المادي للمؤسسة)، والسهر على تدبير مرافقها وتنظيم المواسم الدينية، تجرد مع مرور الزمن من أدواره المذكورة، وتبنى أناظيم غير مألوفة لديه، سنها عليه احتكامه للنظام السائد في مجال تواجده، أنا وهو نظام القبيلة، كيان موجه واحتكاري.

لقد كان حتميا على هذه الفئة الرضوخ للنظام المذكور، ما دام أنه مبني على العصبية التي بها كما يقول ابن خلدون "تكون الحماية والمدافعة والمطالبة"[23]، وهو هدف ييسر تحقيقه انتماءهم لقصور خاصة، ونحن نعلم أن القصر وشكله المعماري ووجود باب واحد أو بابين له؛ يوحي بأننا لما ندخله ندخل إلى دار واحدة كبيرة، ومما يؤكد ذلك هو الاعتقاد الدائم لسكانه في انتسابهم لجد مشترك، ورغم أن هذا النسب المشترك يكون مدعوما إلى حد ما بأساطير وحكايات قد تكون صادقة أو غير صادقة، فإن المهم هو وجود وبقاء واستمرار ذلك الاعتقاد في حد ذاته لأنه يشكل البعد الرمزي الذي يلحم ويوحد المجموعة[24].

وعلى هذا، فضمان الحياة المستقرة في الواحة باعتبارها فضاء متسم دائما بشح موارده الطبيعية وهشاشة بنياته على مختلف المستويات، يتوقف عند ماذا إدراك الإنسان طباع وملامح المجتمع الذي ينتمي إليه، والعمل على تكييفها وفق أنماط حياتية جديدة فرضت صيغها إجباريا الظروف الاقتصادية والاجتماعية والبيئية الغالبة، لذا ففي اعتقادنا أن الانتقال العكسي للمرابط والعودة لمصاف العوام كان إجباريا لا اختياريا، كيف لا ومقامه الأول الأعلى شأنا من غيره، أدرّ له خيرات كثيرة وكسب به مكانة رمزية لم تكن مقيدة عند حدود الزعامة الدينية فقط، لا محالة أنها سهلت عليه احتواء نمطه المعاشي الجديد. هذا التبدّل إن كانت نتائجه إلى حد ما إيجابية عند هذه الفئة- وإن هي مغايرة لما كان عليه الحال في السابق- فله في نفس الوقت تداعيات هيمنت عليها السلبية، وألمت بهوية المجال أكثر مما حافظت عليه، وأصابت الحياة الاقتصادية بالاختلال.

وبناء على ما ذكر، فإذا كان المْرابطين قد تخلو عن ذلك التمايز الإجتماعي والمنزلة العليا المعروفة عنهم سابقا؛ بمباشرتهم لأنشطة يومية- سبقت الإشارة إليها أنفا- كباقي الطبقات الاجتماعية الأخرى، وكذا تقرب قبائلهم بالتي تفوقها شجاعة ومتانة وتأثيرا سواء عن طريق الزواج والمصاهرة، مادام ذلك يبقى بعد تعزيز روابط القرابة والتحالف، باعثا قويا لزعماء القبائل للزواج خاصة إذا كان هذا الاقتران مما كان يحصل به الاتحاد والالتحام[25]، أو من خلال عقد اتفاقيات حماية[26] معها مقابل تقاسم المصالح. إذا كان ذلك فرضا ملموسا قلنا؛ أملته الأحوال المتبدلة وتوجس الشر بانفلات الأمن، لاسيما أن الواحات كانت لعقود من الزمن أكثر المناطق اضطرابا في هذا الإطار. فالأمر له ارتدادات وانتكاسات في عدة أصعدة يمكن إجمالها في عدة نقاط.

- تقلص المجال الزراعي: حيث أدى تملك هذا المكون الإجتماعي لمساحات شاسعة من الأراضي الفلاحية في عمق الواحة إلى اعتباره لها رأسمالا ماديا لا غير، يدر عليه مبالغ طائلة في حالة البيع أو الرهن، وهذا العامل أفضى بشكل مباشر إلى تشويه الصورة المعهودة عن مثل هذه المناطق، إذ تسبب ذلك الغرور في تحويل المجالات الترابية لحقول جرداء استجابت لقدرها المحتوم، أضف لذلك انعكاسات التوارث الذي قزم الملكية الزراعية مما أسعف في تعميرها وقلها تجمعات سكنية حديثة.
- محاولة تجاوز الأنظمة التقليدية(الأعراف المحلية):

وثيقة عرفية لقبيلة المرابطين

رغم أهمية العرف كمؤسسة إجتماعية تجلب المنافع وتخدم المصالح العامة، ولو أن قواعده "تلزم الناس ولو كانوا يجهلونه، لأن الأصل فيه أنه لا يعذر أحد بجهله للقانون"[27]، أو أنه بالمعنى الواسع كونه كل القواعد القانونية المستمدة من الواقع ومن الممارسات المتبعة في محيط إجتماعي معين بعيدا عن تدخل المشرع[28]، و"ينتقل من جيل إلى آخر، وعبر امتداد السنين، بالتقليد الشفوي، ويطبق على كل ما يخص الإنسان الأمازيغي، كالأحوال الشخصية، والعقارية، والإراثة، والعقود، وعلاقاته مع نظرائه"[29]، مع العلم أنه لا يصبح قاعدة تفرض نفسها ويخضع للقوانين التي يسنها الفرد والجماعة، إلا إذا أبانت عن صلاحيتها للمجتمع القبلي برمته[30]، فبصرف النظر عن ذلك؛ أصبح محكوما عليه بالزوال ولو أن مخلفات ذلك واضحة للعيان، إذ صارت الواحة منهكة وتستنزف مواردها بأشكال فوضوية غير معقلنة، بل قيل أنها مسلوبة من أنموذجها الفريد الذي كان يضمن بلا استثناء استمرار الحياة العادية بها سواء للإنسان أو لغيره من الخلائق.

- التضييق على الفئات الاجتماعية الأخرى: قلنا سلفا أن كل العناصر المشكلة للهرم الاجتماعي لتودغى تتوفر عن الأرض- ومنها الحراطين- وتستفيد من حصص مياه الري سواء بواسطة الخطارات أو من خلال الوادي، وذلك ما هو إلا نتيجة للخنق الذي تعرضت له

بالواحة، بحيث لم يعد باستطاعتها استغلال ممتلكات غيرها سيما الخاصة بالمرابطين، مما فرض عليها لزوما اللجوء إلى اقتناء الأرض وبالتحديد في هوامش الواحة، وهذا بدوره أثر سلبا في تغير نمط عيش فئة أخرى مثلت لها هذه النطاقات مجالات للرعي والنجعة، ونعني بالتحديد هنا الرحل الذين رمت بهم الأقدر لتلك البقاع بحث عن الكلأ والماء، وهذا العامل دفعهم بدورهم ليحذوا حذو غيرهم وبالتالي استبدال الترحال بالاستقرار.

- الضغط على الموارد الطبيعية: يمثل هذا المشكل نتيجة عامة لما تطرقنا إليه أنفا، فإذا علمنا أن المجتمع الواحي مجتمع تقليدي زراعي بالأساس، فمن البديهي ونحن نتحدث عن تحولات بنيوية عميقة في التراتبية الاجتماعية (كثرة الملاك الزراعيين)، أن تختل المنظومة البيئية التي يعتبر الماء العمود الفقري لها، بحيث أن ذلك غالبا ما يؤدي لنزاعات وصراعات يطل أمدها، فهذه المادة الحيوية هي المؤهلة في مخيلة الإنسان لخلق التوازن المجالي، وحينما يكون مصيرها الندرة في ظل غياب سياسة مائية قائمة على قواعد وقوانين صارمة وثابتة كان "الأزرف" أو العرف الذي كان في السابق هو الضامن لها، فعادي جدا أن تفتعل معضلات عديدة. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فالأرض التي تعد العنصر الثاني الأكثر أهمية بعد الماء تبقى بدورها تطرح إشكالات معقدة، ترتبط بالأساس بضعف الإنتاجية، ومرد ذلك إلى الاستغلال المفرط وعدم إراحتها وفق "نظام المواسم"، نهيك عن استعمال المواد الكيماوية بدل الطبيعية مما جردها من خصوبتها، وبالتالي انهيار الإنتاج الزراعي، وذلك يتطلب البحث عن أنشطة موازية أفقد الإقبال عليها للواحة خصوصياتها ومميزاتها في أخر المطاف.

خاتمة:

نافلة القول، إن الواحة مجال متذبذب، مهدد بنفاد موارده، وسكانه في دينامية مستمرة، مثلما هي في الوقت ذاته كنز ثمين، وخزان حضاري وتاريخي وثقافي، فهي منصة الإبداع والابتكار، ورمز الأصالة ومنبر الوصل بين الماضي والحاضر، وهذا جعل منها- إن صح التعبير- مختبرا ملائما لدراسة التفاعلات الاجتماعية وفهم العلاقات الإنسانية، علاقات قائمة على التوازن والتكامل. لكنها ومع ذلك، تبقى مجال قابل للتقلب والتغير كلما حل بمنظومتها الخلل، فتدخل الإنسان اللامحدود في شؤونها البيئية أصابها بالأفول والضعف واللاقدرة على تلبية حاجيته الضرورية، وهذا يبقى من الأسباب المزعزعة لقواعد ماضيها الثابتة، التي نظمت في إطارها نسيجها البشري في مزيج طبقي انسجمت فيه كل العناصر المشكلة له من قمة الهرم الاجتماعي إلى أسفله. فالمُرابطين الذين كانوا قد اعتلوا أعلى المستويات في هذا الأخير ألزموا بتغيير أساليب العيش، وأعادوا بذلك تكوين بنية اجتماعية واقتصادية جديدة ومغايرة، قائمة على تجاوز الصورة النمطية المتخيلة لهم والمنفصلة عن جوهرها المعلوم(من الانزواء والصلاح إلى التملك وإعادة مأسسة اقتصاد الواحة)، هذا التحول الملموس الذي يعتبر عميقا، بحكم تأثيره القوي في شتى الجوانب المجتمعية، عدّل النظم التقليدية ومنحها صبغ جديدة لم تستطيع بدورها ترسيخ الثقافة الواحية القديمة، بل بالعكس عرضتها في مزاد الزوال والاضمحلال، اللهم أنها أوقعت المجال في نظام اللاتفاوت الذي لم يعد مقيدا بالتراتبية الاجتماعية على شاكلتها الكلاسيكية، ولو أن تلك الثقافة بصرف النظر عن تعلقها بالماضي ومحاولتها المحافظة على اختياراته، لا يمكن مهما كان تجاوزها.

الهوامش:

[1] حدث خاص، واحات وصحاري متأقلمة مجالات مبادرة، ينظم بمساندة مركز تنمية المناطق الجافة التابع لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية والحكومة الفنلندية، كانكومنس، المكسيك، 8 ديسمبر 2010، ص. 2.

[2] عبد الله استيتيتو، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحري، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط.1، 2013، ص. 51.

[3] ثورية هميزة، وآخرون، العمران والمجال والإنسان في تاريخ المغرب، [تنسيق رحمون الحسين والطاهر بلمهدي]، الرباط: مطابع الرباط نت، ط.1، 2017، ص. 53.

[4] امحمد احدى، دراسات في تاريخ المغرب العميق، أكادير: مطبعة BJ BRINT، ط.1، 2012، ص.25.

[5] اللغة والثقافة الأمازيغيتان هما السائدتان في المنطقة، وتذكر الروايات أن اليهود بدورهم قبل الهجرة كانوا أكثر ارتباطا بهما.

[6] أحمد البوزيدي، قضايا توزيع الماء بواحة درعة من خلال الوثائق المحلية، موضوع في كتاب: الماء في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، سلسلة ندوات ومناظرات، ر.11، ط.1، 1998، ص. 79

[7] عبد الله استيتيتو، دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر، م. س، ص. 53.

[8] عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع: نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلسلة أطروحات ورسائل، الرباط: مطابع سلا، 1989، ص. 175.

[9] القرآن الكريم، سورة: آل عمران، الآية رقم 200.

[10] القرآن الكريم، سورة: الأنفال، الآية رقم 60.

[11] حامد محمد الخليفة، من أخبار المجاهدين: انتصارات يوسف بن تاشفين(400هـ/1009م-500هـ/1106م) بطل معركة الزلاّقة وقائد المرابطين موحد المغرب ومنقد الأندلس من الصليبيين، الإمارات: مكتبة الصحابة، ط. 1، 2004، ص. 12.

[12] إدموند دوتي، الصلحاء، مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر، [ترجمة محمد ناجي بن عمر]، المغرب: أفريقيا الشرق، 2014، ص. 53.

[13] فرج نجم، القبيلة والإسلام والدولة، خمسة أجزاء، القاهرة: دار الدعوة، ط.1. 2004، ج. 1. ص. 26.

[14] محمد أعفيف، توات: مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الرباط: مطبعة أبي رقراق للطباعة والنشر، ط.1، 2014، ص. 137.

[15] مولاي التقي العلوي، أصول المغاربة، [إعداد وإخراج علال ركوك وحفيظة الهاني]، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 2016، ص. 103.

[16] علي صدقي أزايكو، نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الدراسات والأطروحات رقم 1، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 2004، ص. 126.

[17] أحمد البوزيدي، م. س. ص. 122.

[18] M. Mahdane, la Gestion de L'eau D'irrigation dans le Todgha, à Travers des Archives Publiques et Privées, La Rencontre Internationale sur Archives D'irrigation en Méditerranée (AIME), Organisée à la Bibliothèque National du Royaume du Maroc, Rabat 8- 9 Octobre, 2009, p. 6.

[19] مقابلة مع الحسين بن العرابي وأخرون، من ساكني قصر المرابطين بسافلة تودغى، سنة 2019.

[20] محمد المهدي الناصيري، نعث الغطريس الفسيس هيان بن حيان المنتمي إلى سوس، [تقديم وتحقيق خالد الناصري]، منشورات دار الأمان،الرباط: مطبعة الأمنية، ط.1، 2016، ص. 291.

[21] حصلنا عن هذه الأدوات لدى محمد احساين، دوار أداموز، تودغى السفلى، سنة 2017.

[22] ترجح معظم القرائن أن تغير أنماط العيش وتجاوز النظم المحلية التقليدية ،واختلال التراتبية الاجتماعية ابتدئ منذ فجر الاستقلال، مرحلة انهيار الزوايا المحلية(الزاوية الناصرية والعمرية) وبروز الزعامات المخزنية المحلية.

[23] عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون، المقدمة، بيروت: دار صادر، ط.2، 2009، ص. 109.

[24] لحسن تاوشيخت، المجال والمجتمع بالواحات المغربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل مكناس، سلسلة الندوات 6، 1993، ص. 73.

[25] محماد لطيف، الزواج والأسرة في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، أكادير: طباعة ونشر سوس، ط.1، 2015، ص. 17.

[26] بحوزتنا وثيقة تشير إلى وجود إتفاقية حمائية بين مرابطي زاوية الحاج عمرو(أهل السلم) وقبيلة أيت عيسى أبراهيم(أهل السلاح)، من بنودها حماية الأخيرة لهؤلاء من تعديات القبائل المجاورة لهم والدفاع عنهم كلما اشتد أي خطر مقابل منحها قطع أرضية كانت تحت وصاية زاويتهم.

[27] عمر الجيدي، العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومها لدى علماء المغرب، المحمدية: مطبعة فضالة، 1982، ص. 40.

[28] رشيد الحسين، العلاقات الاجتماعية في المجال الأمازيغي بين العرف والقانون، المغرب: مطابع أمبريال، ط.1، 2004، ص. 8.

[29] روبيرأسبينيون، أعراف قبائل زايان، [ترجمة محمد أوراغ، تنسيق أحمد شعيهي]، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الترجمة والتوثيق والنشر والتواصل، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 2007، ص. 23.

[30] حليمة بنكرعي وآخرون، الأعراف بالبادية المغربية، [تنسيق البضاوية بلكامل، فاطمة مسدالي، حليمة بنكرعي، ثريا المرابط، سعيد البوزيدي]، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 1، جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، الرباط: مكتبة دار السلام، ط.1، 2004، ص. ص. 6-7.